« أحمد كمال العالم الأثرى الأول فى مصر »

اختفت الآثار المصرية فى زوايا الإهمال والنسيان ، وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع ، بعد أن قضى خلال القرن الرابع الميلادى على الديانة الوثنية فى مصر ، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام . وانزوت مصر الفرعونية خمسة عشر قرناً ، وطوى الماضى المزدهر السحيق لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف ، وتعتمد على الخيال .

ظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء فى البحث والكشف عن تلك الآثار ودراستها دراسة علمية سليمة ، وظهر علم الآثار المصرية (إيجيبتولوجى) وأخذ فى النمو والإزدهار ، مما أتاح إعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، والكشف عن أصول الحضارة المصرية . وقد تم إزدهار ونمو هذا العلم الناشىء ، الذى لا يزيد عمره على قرن ونصف من الزمان فى خطوات ثلاث متعاقبة .

جاءت الخطوة الأولى مع حملة نابليون على مصر فى أواخر القران الثامن عشر ، إذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان فيما درسوه آثار البلاد ومعالمها التاريخية ، وأخرجوا نتيجة أبحاثهم ودراستهم فى كتاب علمى ضخم هو كتاب « وصف مصر » ، الذى نشر فى باريس ما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣ . ويعد ما جاء فى هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر وما تضمنه من رسوم وخرائط وصور بداية الأعمال العلمية التى تهدف إلى دراسة مصر القديمة دراسة وافية منظمة .

ويشاء القدر أن تضيف الصدفة حسنة أخرى إلى أعمال الحملة الفرنسية إذ عثر أحد رجال الحملة سنة ١٧٩٩ على الأثر المعروف بحجر رشيد . وقد بدأت الخطوة الثانية فى نهضة علم الآثار المصرية حين أقبل الكثير من العلماء على هذا الحجر ، تجتذبهم الفرصة المتاحة لمقارنة الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية المسجلة عليه ، والمتفقة معنى ونصا وإن اختلفت لغة وخطا . وانتهى الأمر بنجاح العالم الفرنسى « جان فرنسوا شمبليون » فى

الكشف عن أصول الكتابة واللغة المصرية القديمة . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء فى قراءة وترجمة الوثائق المصرية ، وتقدمت الدراسات اللغوية ، مما أدى إلى انقشاع الغموض الذى كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم .

وقد مهد الكشف عن أصول اللغة المصرية إلى الخطوة الثالثة التى تجلت فى اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية بالآثار المصرية ، وبدأت مرحلة الكشف عن الآثار وصيانتها ودراستها ، ففتحت المقابر ورممت المعابد وجمعت أوراق البردى واكتظت المتاحف بالآثار ، كما سلطت على مصر القديمة أشعة مناهج البحث العلمى الحديث . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرن التاسع عشر والعشرين بذلوا جهوداً جبارة فى التنقيب المنظم عن الآثار وفى تسجيلها ووصفها وقراءة ما بها من نصوص ، ثم دراسة وتحليل ما كشفوه وسجلوه وترجموه ، مستهدفين فى ذلك إستنباط معالم التاريخ المصرى القديم ومقومات الحضارة المصرية القديمة .

وكان من بين علماء الجيل الأول العالم الألمانى هنرى بروكش (باشا) الذى ولد سنة ١٨٢٧ وتوفى سنة ١٨٩٤ ، والذى يعد من رواد اللغة الديموطيقية إذ ألف كتاباً عن أجروميتها سنة ١٨٥٥ ، كما ألف قاموسا فى اللغة الهيروغليفية فى سبعة أجزاء ما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٢ ، وألف قاموساً جغرافيا لمصر القديمة ، وقام ببحوث ممتازة فى تاريخ مصر وجغرافيتها القديمة . وقد أنشأ هذا العالم الألمانى الكبير أول مدرسة للدراسات الأثرية بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ، ظل مديراً لها حتى أغلقت بعد بضع سنين .

كان بين طلبة تلك المدرسة العالم الأثرى الكبير المرحوم أحمد كمال (باشا) ، وهو أول مؤرخ عربى — منذ الفتح الإسلامى لمصر — كتب فى تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة ، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين . ولذا رأيت من واجبنا أن نعلم شيئاً عن مثل هذا الرجل الذى كرس حياته للعلم ، وترك وراءه ذخيرة علمية ثمينة من بحوث ودراسات ، ظل عاكفاً عليها ، حفياً بها ، يوليها أطيب أوقاته ، حتى صعدت روحه إلى

بارئها . إن معرفة ما قام به مثل هؤلاء الرجال ، واطلاع الجيل الحاضر عليه ، لواجب مقدس ، يمليه علينا صوت الحق والعدل ، ويحتمه الوفاء والعرفان الجميل .

***

ولد أحمد كمال بالقاهرة فى التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٧ هجرية (عام ١٨٤٩ الميلادى) ، والتحق بمدرسة المبتديان الإبتدائية بالعباسية ، ثم بالمدرسة التجهيزية التى كان مقرها إحدى الثكنات العسكرية بالعباسية ، (وهى تقابل المدارس الثانوية اليوم) ، وتعد الطلبة للالتحاق بالمدارس العليا . ثم درس بمدرسة الألسن أو مدرسة « بروكش » للآثار واللغة القديمة .

وقد عمل قبل أن يلتحق بمصلحة الآثار فى جهات متعددة ، فكان معاوناً ومترجماً فى نظارة المعارف ، ومعلماً للغة الألمانية بالمدارس الأميرية بالقاهرة والإسكندرية ، ومترجماً للغة الفرنسية بمصلحة وابورات البوستة وبديوان البحرية وبعموم الجمارك وبنظارة المالية . ولكن شغفه بالآثار جعله يترك هذه الوظائف رغم ما كان يجنيه من مكاسب مادية ، ويلتحق بوظيفة كاتب بمصلحة الآثار ، ثم لم يلبث أن شغل منصب مترجم بالأنتكخانة المصرية مع وظيفة معلم لغة قديمة بها . ولما خلت وظيفة أمين مساعد بالمتحف المصرى تمكن من الفوز بها ، وكان أول مصرى يتقلد هذا المنصب . وقد ظل يعمل بمصلحة الآثار حتى اعتزل العمل سنة ١٩١٤ ، وهو فى الخامسة والستين من عمره .

وقام أحمد كمال أيضاً بتدريس اللغة المصرية القديمة والحضارة المصرية فى مدرسة المعلمين (العليا) وفى الجامعة المصرية الأهلية ، وكان عضواً بمجلس المعارف وبالمجمع العلمى المصرى وبالمجمع اللغوى الذى أسسه جماعة من المهتمين باللغة العربية سنة ١٨٩٢ . وقد منح أثناء حياته الكثير من الرتب والنياشين : أنعم عليه برتبة الباكوية ثم الباشوية ، وتقلد نياشين كثيرة منها النيشان العثمانى من الدرجة الرابعة ثم الثالثة والنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، كما منح لقب أمين متحف شرف بعد إحالته على المعاش .

وتوفى أحمد كمال عن أربعة وسبعين عاماً فى ٥ أغسطس سنة ١٩٢٣

بمنزله بأهرام الجيزة ، وهكذا طويت حياته بعد أن ترك صفحة خالدة فى سجل العلم . لقد عاش أحمد كمال فى زمن لم يعرف فيها المصريون أهمية الآثار وقيمتها ، ولم يعنوا العناية اللازمة بها ، فى فترة احتكر فيها الأجانب العلم وتولوا المناصب الكبيرة فى البلاد ، مما عرضه للكثير من المتاعب والمضايقات ، ومع ذلك فإنه لم يضعف أمامها ولم تعقه العقبات التى وضعت فى طريقه ، بل صمد ونجح فى صموده بفضل ما اكتسبه فى حياته من تجارب وتدريب وخبرات ، وبفضل إيمانه بعظمة مصر القديمة ورقى حضارتها ، وبفضل إلمامه بالكثير من اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية بجانب العربية والتركية وبعض اللغات السامية ، وبفضل إطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث فى اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة ، وأخيراً بفضل ما جبل عليه من إخلاص ودقة فى العمل وجد وتفان فى البحث وشغف وميل للدراسة والتحصيل .

والآن بعد أن ألممنا إلماماً عاماً بتاريخ حياة « أحمد كمال » لنتحدث الآن عن أياديه البيضاء فى ميدان الآثار ، وسأقسم هذا المجال الواسع إلى ثلاث نواح رئيسية :

أولا : جهوده العلمية وما تركه لنا من كتب ودراسات وأبحاث .

ثانياً : جهوده العملية فى المتاحف والحفائر والرحلات الإستكشافية والتفتيشية .

ثالثاً : جهوده فى نشر الثقافة الأثرية فى البلاد ، وجهاده فى سبيل تخريج وتشجيع الأثريين من المصريين .

* * *

ألف أحمد كمال عدداً كبيراً من الكتب باللغة العربية ، كما ترجم وألف باللغة الفرنسية كذلك . وسنتحدث الآن بايجاز عن كتبه التى أخرجها باللغة العربية وهى حسب ترتيب صدورها :

١ — « كتاب العقد الثمين فى محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين » وقد تناول فى هذا الكتاب — الذى بلغت عدد صفحاته ٢٢٤ صفحة —

تاريخ مصر الفرعونية بايجاز مع الاهتمام بالنواحى الحضارية . تحدث فى مقدمة الكتاب عن فائدة التاريخ وعن أصل المصريين وحدود مصر وأقسامها الإدارية وعن النيل واسمائه وفروعه ومصباته وعن تقسيم التاريخ الفرعونى إلى أسرات ملكية . ثم تناول فى متن الكتاب أحداث وتاريخ أسرة بعد أسرة وملك بعد ملك ، مدوناً أسماء وألقاب كل فرعون ومدة حكمه . وتخلل هذا السرد التاريخى فصل عن العلوم فى الدولة القديمة وآخر عن أعياد ومواسم المصريين القدماء ، كما ختم الكتاب بفصل عن الحروف الهيروغليفية وكيفية قراءتها .

٢ — « كتاب الفوائد البهية فى قواعد اللغة الهيروغليفية » وهو كتاب ضخم يتناول قواعد وأصول اللغة الهيروغليفية وطريقة الكتابة المصرية القديمة ، سار فى تبويبه وتنظيمه على أسس وقواعد اللغة العربية ، لا كما يفعل العلماء الآن حين يبحثون فى قواعد اللغة المصرية القديمة فيقربون بينها وبين أجروميات اللغات الأفرنجية . وقد تناول فى الباب الأول من هذا الكتاب الإسم فتحدث عن نوع الإسم (مذكر ومؤنث) وأحوال الإسم (مفرد ومثنى وجمع) وأقسام الاسم (جامد ومشتق وبسيط ومركب) وتحدث عن إداة التعريف وأسماء الأعلام وأسماء الإشارة القريبة والبعيدة والضمائر المتصل منها والمنفصل والصفات والنسبة والتشبيه والتفضيل ومبالغة التفضيل ثم تناول الأعداد الأصلية والتركيبية والعمليات الحسابية والمقاييس والمكاييل والموازين وكذا ظرف الزمان والمكان وأسماء الإستفهام . وتحدث فى الباب الثانى عن الفعل والفاعل والمفعول والمصدر وإسم الفاعل وإسم المفعول وعن تكوين الأزمنة وصيغها وعن الأفعال المساعدة والتعدية والبناء للمجهول . وتحدث فى الباب الثالث عن الحروف فتكلم عن حروف الجر والاستثناء والعطف والتعليل والتشبيه والنفى والتمنى والترجى والتنبيه والنداء والإضافة . وافرد فى نهاية الكتاب جانباً للتحدث عن خطوط اللغة المصرية من هيروغليفية وهيروغليفية مختصرة وهيراطيقية وديموطيقية وقبطية ، كما أعطى جـــدولا بالإشارات الهيروغليفية بمختلف أنواعها وأقسامها ، وأرفق بهذا كله بعض التمارين للمطالعة والترجمة وكذا قاموساً صغيراً للكلمات الهيروغليفية الهامة ومعانيها والنطق القبطى لها .

٣ — « كتاب اللالى الدرية فى النباتات والأشجار القديمة المصرية » وهو عبارة عن معجم فى ٣١٦ صفحة للنباتات القديمة مرتباً حسب الحروف الأبجدية، وبه أسماء النباتات باللغة الهيروغليفية ومرادفاتها العربية والفرنسية، وأحياناً القبطية أو الديموطيقية أو العبرية أو اليونانية . ومما هو جدير بالذكر أن مركز تسجيل الآثار أدرك أهمية حصر وتحقيق النباتات والحيوانات فى مصر القديمة فكلف سنة ١٩٥٧ المرحوم الدكتور لويس كايمر بعمل قاموس واف عن نباتات مصر القديمة وحيواناتها . وقد تم عمل تخطيط شامل لذلك القاموس وأخذ الدكتور كايمر ومساعده فى تدوين عدد من البطاقات تختص كل منها بنبات أو حيوان ولكن الدكتور كايمر — للأسف الشديد — مرض وتوفى قبل إتمام هذا العمل الكبير .

٤ — « كتاب بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » ويقع فى ٥٨٤ صفحة من الحجم الكبير ، كما تضمن أكثر من ٣٠٠ رسم توضيحى . وقد تناول أحمد كمال فى هذا الكتاب علم الميقات وعلم الفلك وعلوم الرياضة عند المصريين، ثم تحدث عن ديانة قدماء المصريين وعقائدهم فى الآلهة والروح . وأفرد باباً خاصاً لعلم الطب المصرى القديم مهد له بكلمة عن أوراق البردى الطبية ثم تحدث فى كافة الموضوعات الطبية كمعالجة الحروق ومداواة الجروح وعلاج الأسنان والكبد والأذن والأدوية المفيدة للجلد والمراهم المزيلة للالام ... ألخ . كذلك أفرد فى هذا الكتاب باباً للمعادن والأحجار المصرية القديمة وآخر للنباتات وثالث للحيوانات . وكان أحمد كمال حريصاً فى جميع هذا الأبواب على كتابة أسماء هذه المواد باللغة المصرية القديمة مع مراعاة الترتيب الأبجدى .

٥ — « كتاب ترويح النفس فى مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس » وقد تحدث فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ٢١٠ صفحة عن تأسيس تلك المدينة ، وأسمائها القديمة، وتاريخها ، ومعابدها ، ومعبوداتها ، ونظرياتها الدينية ، ثم عن انحطاطها ، وحالتها الحاضرة ، وآثارها وأطلالها الحالية ، والحفائر التى أجريت بها . وتحدث فى هذا الكتاب عن علوم التقويم والفلك والتنجيم وهى علوم برع فيها كهنة هذه المدينة . وقد فند فى هذا الكتاب الرأى

الخاطىء القائل بأن العبرانيين هم الذين أسسوا هذه المدينة أثناء أسرهم بمصر، كما نصح الحكومة بعدم بيع أراضيها بعين شمس إلا إذا اشترطت أن يصبح كل ما يوجد بها من آثار حقاً خالصاً لها .

٦ — « كتاب الدرر النفيس فى مدينة ممفيس » وهو كتاب صغير تحدث فيه عن تأسيس المدينة فى عهد مينا ، وعن أسماءها القديمة ، وأقاليمها ، وأهمية موقعها الجغرافى ، وتاريخها . وقد أشار فى سياق الحديث إلى أن الوضع الطبيعى لعاصمة البلاد هو غرب النيل حيث الوادى المتسع والخير الوفير ، وأنه لم يتخذ عاصمة لمصر فى شرق الوادى إلا كل غريب عن البلاد .

٧ — « كتاب الحضارة القديمة فى مصر والشرق » وهو عبارة عن مجموعة المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة المصرية الأهلية . تحدث فى المقدمة عن معنى الحضارة والمذاهب المختلفة فى أسباب ظهورها وكيفية إنتشارها ، وعن الجغرافيا الرياضية عند المصريين ، وعن النيل ، وأصل المصريين ومن أين وفدوا ، وعن أطوار الحضارة الأولى فى العصور الحجرية والعصر العتيق وتحدث فى متن هذا الكتاب عن الآثار المصرية بأنواعها المختلفة ، وعن أسماء مصر وإشتقاقاتها ، وعن أقاليمها وعن الزراعة والتجارة والملاحة والمعارف والفنون ونظام الحكم والكتابة والديانة والسحر والطب ، كما تناول بالدراسة تاريخ الدولتين القديمة والوسطى .

٨ — « كتاب الدر المكنوز والسر المفروز فى الدلائل والخفايا والدفائن والكنوز » وقد أخرجه فى جزئين الأول باللغة العربية والثانى ترجمة للجزء الأول باللغة الفرنسية . وقد تحدث فى هذا الكتاب عن المساجد والكنائس والآبار والكهوف القديمة فى جهات ومدن مصر المختلفة .

هذه هى كتب أحمد كمال فى اللغة العربية وهى التى أرجو أن يعاد طبعها حتى يسهل الإطلاع عليها وقد قام بجانب هذا بترجمة دليلى متحفى القاهرة والإسكندرية من اللغة الفرنسية إلى العربية ، كما نشرت له مقالات فى بعض المجلات العربية كالمقتطف والمنار .

أما مؤلفاته الفرنسية فأهمها كتابان يدخلان فى نطاق الكتالوج (أو الفهرست) العام لمتحف القاهرة ، ذلك المجهود العلمى الضخم الذى اشترك فيه

عشرات من العلماء ، وكان أعظم شرف لعالم الآثار وقتئذ أن يشترك فى وضع هذا الكتالوج ، الذى كان ولا يزال من أهم مراجع الآثار المصرية .

تناول الكتاب الأول لوحات القبور Stèles hiéroglyphiques d'Epoque Ptolémaique et Romaine التى ترجع إلى العصر اليونانى الرومانى ، فقام بوصف وتسجيل نصوص ٢٠٨ من هذه اللوحات مع تدوين ملاحظاته عنها فى الجزء الأول ، وافرد الجزء الثانى لصورها .

ودرس فى الكتاب الثانى موائد القرابين Tables d' Offrandes من الدولة الوسطى حتى العهد الرومانى ، فتناول فى الجزء الأول ٢٥٦ مائدة قرابين بالوصف والنسخ وتقرير حالتها ومستواها الفنى ، وأفرد الجزء الثانى لصورها .

كذلك قام بكتابة ما يقرب من ستين مقالا باللغة الفرنسية ، خص منها مجلة مصلحة الآثار أربعون مقالا ، ووزع الجزء الثانى على المجلة الفرنسية للآثار ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ومجلة المجمع العلمى .

وقد تناولت بعض هذه المقالات موضوعات دينية، وتحدث فى مقال منها مثلا عن الأقزام المقدسة فى أماكن مختلفة من العالم ، وتناول فى مقال آخر « نظريات قدماء المصريين فى طريقة خلق العالم » بالبحث والدراسة . وخصص بعض المقالات لوصف بعض الآثار التى اكتشفها أو عثر عليها ، فحرص على تسجيل نصوصها وتدوين ملاحظاته العلمية عنها . وتناولت مقالات أخرى الجغرافية التاريخية لمصر وطبوغرافيتها القديمة : فكتب مقالا فى خمس وأربعين صفحة عن أصل كلمة مصر والأسماء الجغرافية التى تعبر عن ذلك وسكانها الأصليين وتحدث فى بعض مقالاته عن مدن مصرية من حيث موقعها وأصل إسمها وتاريخها وآثارها وجباناتها والحفائر التى أجريت بها ، موضحاً ذلك بالرسوم والخرائط، منها مقال عن مدينة سمنود القديمة ، وآخر عن الحيبة ، وثالث عن بوتو (تل الفراعين) ، ورابع عن هليوبوليس (عين شمس) ، وخامس عن منطقة البرلس ، وسادس عن بعض الأماكن الأثرية فى الوجه البحرى ... الخ .

وتناولت بعض مقالاته الحفائر التى أجراها أو أشرف عليها أو تقارير عن

الرحلات التفتيشية والاستكشافية التى قام بها . أما أهم مقالاته فهى التى تناولت موضوعات لغوية : تحدث فى مقال من أربعين صفحةعن أسماء ملوك مصر التى وردت فى المخطوطات العربية مع التعليق عليها والبحث عن أصلها ، وتحدث فى مقال آخر من خمس وثلاثين صفحةعن أسماءالملابس عند المصريين القدماء مع مقارنتها بالمرادفاتالعربية ، وأفرد مقالا ثالثاً لأصنام العرب محاولا الربط بين أسمائها وبعض ألفاظ اللغة المصرية القديمة أو إيجاد صلة بينها وبين المعبودات المصرية ، وفى مقال رابع تناول بالدراسة أصل كلمة مصر .

والآن لنتحدث عن أهم وأثمن ما كتبه وهو « المعجم المصرى القديم » ، الذى لا يزال مخطوطاً فى ٢٢ جزء لم يطبع للان ، والذى يجمع مفردات اللغة المصرية وما يقابلها بالعربية والفرنسية والقبطية والعبرية .

هذا المعجم يرتبط بناحية اهتم بها أحمد كمال وهى مدى صلة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص . فقد لاحظ العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر فى قواعد اللغة المصرية القديمة الشيء الكثير من مظاهر وخصائص اللغات السامية : من ذلك اعتماد اللغة المصرية على الحروف الساكنة وخلوها من المتحركة ، وتشابه صيغ الفعل وأزمانه مع الفعل السامى ، واشتمالها المثنى بجانب المفرد والجمع ، ولظروف الزمان والمكان ، ولياء النسب وتاء التأنيث والضمائر المتصلة ، ثم استخدام اللغة المصرية الجمل الفعلية بجانب الإسمية ، كما لوحظ أن الكثير من ألفاظ اللغة المصرية قريب فى تركيبه ونطقه من مرادفاتها السامية .

وهذا الميدان الواسع المتشعب لا يمكن أن يطرقه إلا عالم ملم باللغة المصرية واللغات السامية وخاصة العربية إلماماً كبيراً ، وقد طرق أحمد كمال هذا الميدان ، وتناول العلاقة بين اللغة المصرية والعربية فى محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين الناصرية سنة ١٩١٤ جاء فيها :

«اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتى فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى إلى أن بلغت الستين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغـــة المصرية القديمة من أصل واحد ... ... » .

ثم جاء فى هذه المحاضرة :

« ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال أمكننى الخوض فى مقارنتهما بالبراهين القاطعة التى تظهر لنا حقائق المعانى وتبين لنا فحوى النصوص التى وضعت . لا أفتخر بذلك ولا أبرىء نفسى من الغلط فى مثل هذا المجال الواسع ولكنى سلكت طريقاً أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال فى بعض كلماتها ، اقتداء بالمصريين أنفسهم ، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة فى اللغتين ... ... » .

وعلى هذا الأساس بدأ أحمد كمال فى كتابة معجمه الذى استغرقت كتابته ، مايقرب من عشرين عاماً ، وأخرجه فى ٢٢ جزء،ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية . وكانت طريقته فى هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفية ـ وقد يسجل أحياناً النصوص التى احتوتها ـ ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية . ولنضرب مثلا بحرف الـ « س » فقد تضمن المجلد الخاص بهذا الحرف ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات .

وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريباً قبل أن يظهر قاموس إرمان «وجرابو» الصغير سنة ١٩٢١ ، كما أن المعجم المصرى الكبير المعروف بقاموس برلين ، الذى أخرجه المجمع العلمى البروسى جامعاً بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية ، لم يظهر إلا فى الفترة بين ١٩٢٦ ، ١٩٣١ أى بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال .

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة أشهر إلى وزارة المعارف طالبا طبع المعجم على نفقتها ، فأحيل جزء منه وهو المتضمن حرف « القاف » إلى مدير المطبوعات وكان إنجليزيا فى ذلك للوقت، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار،العالم الإنجليزى « فرث » ليبدى رأيه فيه. وقد أشرك «فرث» معه فى هذا الموضوع، العالم الفرنسى « لاكو » مدير مصلحة الآثار وقتذاك ، وعالم الآثار الأمريكى « ريزنر » الذى كان يدير حفائر جامعة « هارفرد » بمنطقة أهرام الجيزة ، وقد حبذ الأمريكى طبع المعجم ورفض الفرنسى ذلك ، وامتنع

الإنجليزيان عن إبداء الرأى ، وهكذا قضى على هذا المعجم بأن يطوى فى زوايا النسيان .

وإنى لأنتهز هذه الفرصة فاطالب باعادة النظر فى أمر نشر هـــذا المعجم بعد تحقيق بعض ما أجراه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية وسائر اللغات السامية . وهذا أمر طبيعى فالمعاجم فى حاجة دائماً إلى التنقيح والتعديل والإضافة . وأتوجه برجاء خاص إلى السيد رئيس الجمعية الدكتور أحمد بدوى أن يعنى بهذا الموضوع ، فهو يهتم إهتماما كبيراً بالمعاجم والقواميس ، وقد سمع معظمنا عن المعجم الذى أخرجه سيادته منذ بضع سنوات بعنوان « المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة » ، كما كان دائما شديد الإيمان بالصلة القوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية وخاصة العربية ، وقد انعكس هذا الإيمان فى محاضراته فى معهد الآثار المصرية فى اللغة الهيروغليفية التى كانت تتضمن نماذج عديدة من الكلمات المتقاربة فى التركيب والنطق فى اللغتين المصرية القديمة والعربية ، كما ألقى سيادته فى ٤ فبراير سنة ١٩٦١ بحثاً قيما فى مجمع اللغة العربية بعنوان « اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية » . إنى أطمع فى أن يولى هذا الموضوع شيئاً من اهتمامه.

* * *

هذا مجمل لنشاط المرحوم أحمد كمال العلمى ، وموجز لما قام به فى ميادين البحث والدراسة والتأليف ، وقد شمل نشاطه كافة نواحى علم الآثار من لغة وتاريخ وحضارة وفن ودين ، والآن لننظر قليلا فيما قام به من مجهودات عملية فى ميدان الآثار .

قام أحمد كمال بجولات استكشافية وتفتيشية فى كافة المناطق الأثرية بالبلاد ، كتب عنها تقارير هامة مفيدة .

وأسهم أحمد كمال فى التنقيبات والحفائر التى أجريت فى عشرات من المواقع الأثرية ، وخاصة فى مصر الوسطى ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر حفائر البرشه ، وعرب البرج ، وأطفيح ، والشيخ سعيد ، ومير ، ودير

الجبراوى ، ودرنكة ، وبالقرب من ديروط ، وديمة فى شمال بركة قارون . وقد كتب عدداً من التقارير الممتازة عن هذه الحفائر فى مجلة مصلحة الآثار ، من أمتعها تقاريره عن حفائرة قرب ديروط التى شغلت مايقرب من ١٤٠ صفحة من اعداد تلك المجلة .

كذلك قام أحمد كمال بالدور الرئيسى فى العثور على موميات الفراعنة التى كانت مكدسة بمخبأ الدير البحرى بغرب طيبه .

وبذل أحمد كمال جهداً كبيراً فى سبيل نقل آثار المتحف المصرى ، وفى تنظيمها وترتيبها عندما نقلت من متحف بولاق إلى متحف الجيزة سنة ١٨٩٠م ثم عندما نقلت من متحف الجيزة إلى المتحف الحالى سنة ١٩٠٠ .

كذلك جاهد أحمد كمال لإنشاء المتاحف الأقليمية فى عواصم الأقاليم ونجح فى إنشاء متاحف أسيوط والمنيا وطنطا . وانى أنقل هنا جانبا من مقال كتبه فى هذا الشأن فى جريدة الأهرام ، موجهاً الحديث فيه إلى مديرى المديريات :

« فيأيها المديرون ، أهل الفضل والمعارف، القائمون باصلاح شئون البلاد، المعهود إليكم أمرها وتقدمها ، أسوق إليكم حديثى هذا لبذل كل ماتستطيعون من الوسائل لإنشاء المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفرديه. هذا ولا يخفى أن مجالس المديريات والبلديات يمكنها القيام بصرف ماتحتاج إليه هذه المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفردية لانه أمر متيسر لكل مدير غيور على بلاده. فالمتاحف لا تكلفهم شيئاً ، فان المتحف المصرى العام عليه أن يوزد الآثار التى لا تفيده والتى يبيعها الآن للاجانب فى قاعة المبيعات بأبخس الأثمان وأن يعطهم القواعد والنصبات والدواليب وأنواع الأثاث المودعة فى المخازن بلا فائدة. وليكن لكل مدير الحق فى حفظ كل شىء يحده السباخة فى الخرائب والاطلال من الآثار التى تبدو يدون ثمرة ولا فائدة ، وبذلك تصبح كل مديرية حافظة لآثار سكانها القدماء تنافس أختها فى التقاط ما يؤخذ منها أثناء السباخ »

وهذا المقال يبين لنا فى نفس الوقت ماأبداه هذا العالم من سخط على خروج آثار مصر القيمة إلى الخارج بلا رابط أو ضابط .

* * *

ناحية ثالثة بذل فيها أحمد كمال جهداً كبيراً بجانب الناحيتين العلمية والعملية هى سعيه فى نشر الثقافة الأثرية ، وتبصير المصريين بعظمة بلادهم السابقة، ومحاولة خلق جيل ناشىء من الاثريين المصريين يعملون فى حقل الآثار الذى كان قاصراً فى ذلك الوقت على الأجانب .

ولقد كانت مهمته شاقة صعبة إذ كان الوعى الأثرى شبه معدوم والعناية بالآثار ودراستها أموراً غير مألوفة ، وسأقدم على سبيل المثل جانبا مما كتبه المرحوم محمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » منددا بالآثار الفرعونية ،متندراً بمعرفة أحمد كمال باللغة الهيروغليفية إذ قال :

« ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ، ولا أفادوك عنها شيئاً ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين . ولن تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة الهيروغليف أعنى لغة أبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغريبة ، والله أعلم بمقدار علمه بها .

ولو تمنيت الامانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها الغالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . وياليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فانها تكلف الامة المصرية نفقات على البحث عنها فى خفايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولا على متحف بولاق وثانيا على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثا على المتحف الجديد بقصر النيل فانها تعد بالملايين » .

ويرجع إلى أحمد كمال فضل السعى لدى ناظر المعارف أحمد حشمت باشا لإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية . وقد كلل سعيه بالنجاح فأنشئت أول فرقة ، التحق بها المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا والمرحوم الدكتور سليم حسن والمرحوم رياض جندى ملطى والمرحوم أحمد البدرى والسادة رمسيس شافعى و « محمود حمزة » كما إلتحق بالفرقة الثانية المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وكان أهم أغراض هذه الفرقة دراسة الآثار والتاريخ المصرى القديم وذلك لإعداد موظفين.

ولما أكملت الفرقة الاولى دراستها سنة ١٩١٢ ونالت دبلوم مدرسة المعلمين الخديوية حاول أحمد كمال إلحاق بعض أفرادها بالمتحف المصرى ولكنه لم يوفق فى هذا السبيل للعراقيل التى أقامها الأجانب فى سبيل ذلك، فاشتغل خريجوا الفرقة بالتدريس حتى أوفدت منهم وزارة الأشغال (التى كانت تتبعها مصلحة الآثار حينئذ) سنة ١٩٣٢ سليم حسن إلى باريس، ومحمود، وحمزه إلى لفربول ثم باريس كما أرسلت سامى جبره إلى لفربول وعباس بيومي إلى باريس ليستكمل الجميع دراستهم فى الآثار.

ولما اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ أثار اكتشافها إهتمام مصر والعالم بأجمعه، ففكرت وزارة المعارف فى إعادة إفتتاح تلك الفرقة بمدرسة المعلمين، وتم ذلك فى يناير ١٩٢٤، والتحق بها بعض الطلبة الحاصلين على البكالوريا. وحين صدر المرسوم الملكى بانشاء الجامعة المصرية ١٩٢٥ تقرر أن يكون من أقسام كلية الآداب قسم للاثار، وألحقت تلك الفرقة بكلية الآداب فى أكتوبر سنة ١٩٢٥.

* * *

هـــذا هو تاريخ أحمد كمال الذى ارتقى سلم المجد على درجات العلم والكفاح. والذى أوقف حياته على خدمة الآثار، وظل رغم شيخوخته وحتى أيامه الاخيرة مثابراً على الكتابة والبحث والتأليف، والذى كشف عن عظمة وبهاء الحضارة المصرية ونظر فى أحوالها الإقتصادية والفكرية والفنية والإجتماعية، كما نظر فى حياتها السياسية، والذى أدرك أن طبيعة عمل الأثريين المصريين ليس مجرد التحفظ على بقية من آثار حدت على مر القرون والدهور أو مجرد تفاخر على بقية العالم بما كانت عليه بلادنا حين شقت حضارتها على بقية البلدان، وإنما هو عمل ودراسة وبحث وتحليل وصقل وتقويم، ينعكس على الشعب فى شكل ثقافة وعزة تدفعه إلى الأمام.

ومع ذلك لحين توفى أحمد كمال لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة رغم ماجرت عليه من عادة نعى كل عالم أجنبي فى صفحات طوال. ولم تنعه من عشرات المجلات العلمية سوى مجلة المجمع العلمى ومجلة الآثار المصرية البريطانية وكان ذلك فى بضعة سطور.

وكل زائر للمتحف المصرى يرى أسماء ثمانية عشر عالما أثرياً مسجلة على واجهة المتحف ، ليس من بينها اسم أحمد كمال كما يقابل الزائر فى حديقة المتحف المصرى تمثال وتابوت مرييت . وفى داخل المتحف سبعة عشر تمثالا لكبار الأثريين الأجانب ، وليس من بينهم بالطبع تمثال « أحمد كمال » . بل لقد طالب بعض المختصين بوزارة المعارف بعمل تمثال له ، وفعلا أقامت الوزارة له تمثالا جصيا ، ولكنه أودع متحف التعليم . وإنى لأرجو تدارك ذلك حين إنشاء متحف الآثار الجديد .

* * *

أرجو أن يرسم الجيل الناشىء من الأثريين سيرة هذا الرجل ، ويحذوا حذوه ، ويعوا خطاه فى خدمة العلم والثقافة والوطن ، وأن يتموا رسالته التى جاهدفى سبيلها حتى النفس الاخير .

محمد جمال الدين مختار